توافقية الدين والقيم الإنسانية والخلقية في مثالية توفيق الطويل المعدلة

د.غيضان السيد علي(*)

تمهيد

كانت "المثالية المعدلة" ذلك الاتجاه الذي ارتضاه وعبر عنه توفيق الطويل رائد الفلسفة الخلقية في بلادنا بمثابة رد فعل على تزمت مثالية كانط الكلاسيكية النقدية؛ حيث رفضت الأخيرة كل الأسس الدينية والأنثربولوجية والسيكولوجية، وأعلنت بوضوح إنها صحيحة بالنسبة لكل الموجودات العاقلة بما هي كذلك، فجاءت مبادئها الأخلاقية صورية شكلية محضة لا تصلح أن تكون مرشداً لسلوك الإنسان؛ حيث أخضعت إقامة الأخلاقية على فعل الواجب لذاته الحياة الخلقية لقانون صوري مجرد مقطوع الصلة بواقع الإنسان، وأصبح مبدأ الواجب عند كانط لا يساعد الإنسان على استخلاص واجباته في الحياة العملية؛ حيث إنه لا يمثل سوى قاعدة سلبية للسلوك لا تفيد في الإرشاد إلى ما ينبغي فعله، كما ترتب أيضاً على صورية قانونها الأخلاقي تشدداً وتزمتاً واضحاً تمثل في إبعاد العواطف والميول - حتى ولو كانت نبيلة - باعثاً على فعل الواجب، وتحريم الاستثناء من القانون الأخلاقي تحت أي ظرف من الظروف، كما بدا تزمتها أيضا عندما فصلت بين العقل والحساسية فصلا قاطعا، وردت القيم الخلقية إلى العقل دون الحساسية، فجارت على الذات الحاسة في سبيل الذات العاقلة؛ فجاءت المثالية المعدلة منددة بذلك التزمت الذي اتسمت به لمثالية كانط الإكسيولوجية، وراعت الأسس الدينية والأنثربولوجية والسيكولوجية في إقامة الأخلاقية وتخلصت من النزعة الصورية والتزمت الشديد، وراعت دور العواطف والميول في الحياة الخلقية

(*) مدرس الفلسفة الحديثة بكلية الآداب جامعة بني سويف، جمهورية مصر العربية

وأباحت الاستثناء من القاعدة الخلقية، ورأت أن القانون الأخلاقي قد وضع من أجل الإنسان وليس الإنسان هو الذي خُلق لأجل القانون، وتخلصت من ذلك الفصل الجائر بين العقل والحساسية، وذهبت إلى القول بأن الحياة الأخلاقية لا تستقيم ما لم تظل شخصية الإنسان سليمة متكاملة، فيبدو الإنسان فيها كلا متكاملاً يجمع بين الحس والعقل في غير تصارع ينتهي بالقضاء على أحدهما ويتمثل الإنسان فرداً في أسرة ومواطناً في أمة وعضواً في مجتمع إنساني، وبهذا يتصل كمال الفرد بكمال المجموع الذي ينتمي إليه فيختفي النزاع التقليدي بين الأثرة والإيثار ويذوب توكيد الذات ونكرانها، ويظل الإنسان خلال هذا محتفظاً بفرديته واستقلال شخصيته برغم ولائه للمجموع الذي ينتمي إليه، وبهذا تصبح الأخلاقية مطلباً ميسور الحال وليست عبئاً ثقيلاً لا يقوى على حمله إلا الأبطال.

ومن ثم كانت القيم الخلقية والإنسانية في المثالية الكلاسيكية سابقة على الدين الذي يأتي لاحقاً، بل وفي أغلب الأحيان تتناقض القيم الخلقية والإنسانية مع ما هو أخلاقي حسب مبدأ الإرادة الخيرة الكانطي. أما في المثالية المعدلة فهناك توافق وتلازم في العلاقة بين ما هو ديني من ناحية وما هو أخلاقي أو إنساني.

وقد أفرد رائد الفلسفة الخلقية في بلادنا مكانة مؤثرة وبارزة للدين في كتاباته كما تناول علاقة الدين بالقيم الإنسانية الخلقية في مواضع شتى من أبحاثه ودراساته، نعرض لفحواها فيما يلي:

أولاً: جوهرية الدين في حياة البشر

الدين لغة يعني العادة، ويطلق بمعنى أوسع على الحق والباطل، ويشمل أصول الشرائع وفروعها؛ وهو عبارة عن وضع إلهي سائق لذوي العقول باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات[1]، ويعده الكثيرون - بشكل عام- مصطلحًا مثيرًا للجدل، يعني وبشكل متبادل الإيمان ويعرف عادة بأنه الاعتقاد المرتبط بما فوق الطبيعة

---

(1) عبدالمنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة ، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، 2000، ص 359، (مادة دين).

المقدس والإلهي. وهو في مفهوم رجال الدين والفكر واللغة: الطاعة والجزاء والانقياد، ولا يكون إلا وحياً من الله إلى أنبيائه الذين اختارهم واصطفاهم من عباده المخلصين، في حين يعّرفه أهل الاصطلاح- من أصحاب المعاجم وكتب التعريفات العربية- بتعريفات متنوعة، تركز في مجملها على أن الدين رسالة من الله تعالى إلى البشرية بواسطة الرسل، يدعوهم فيها إلى الإيمان بوحدانيته، ومعرفة قدرته وهيمنته على الوجود وعظمته اللامتناهية، وتنبههم إلى العلامات الدالة على وجوده في الظواهر الكونية، وتدعوهم إلى ما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة. وقد توزعت هذه المعاني السابقة للدين- بين التعريفات المعجمية الثلاثة التالية- عند المسلمين:

1- الدين وضع إلهي يدعو أصحاب العقول إلى قبول ما هو عند الرسول.

2- وضع إلهي سائق لذوي العقول، باختيارهم المحمود إلى الخير بالذات.

3- دين الله المرضي الذي لا لبس فيه ولا حجاب عليه ولا عوج له، هو إطلاعه تعالى عبدَه على قيوميته الظاهرة بكل بادٍ وفي كل بادٍ وأظهر من كل بادٍ وعظمته الخفية التي لا يشير إليها اسم ولا يحوزها رسم وهي مداد كل مداد[2].

بينما يورد المعجم الفلسفي تعريفًا للدين باعتباره هو ذلك الذي يعبر عن العلاقة بين المطلق في إطلاقه والمحدود في محدوديته. ولهذا يتصف أي دين بما يأتي:

(أ) الاعتقاد في مطلق

(ب) تحديد علاقة الفرد بهذا المطلق

(ج) ممارسة شعائر وطقوس معينة[3] كما يرى أيضًا أن الدين مرادف للملة، مستندًا إلى قول الفارابي في كتاب الملة: "الدين والملة يكادان يكونان أسمين

---

[2] محمد عثمان الخشت: تطور الأديان (قصة البحث عن الإله)، الطبعة الأولى، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2010، ص16-17.

[3] مراد وهبة: المعجم الفلسفي،القاهرة، دار قباء، 1998 ، ص332-333 (مادة دين)

مترادفين"[4]. وإذا كان محمد عثمان الخشت يوافق هذا الرأي مستندًا إلى قول الرازي في "مختار الصحاح" "الملة: الدين والشريعة" إلا أنه يرى أنهما يختلفان حسب السياق وطريقة الاستعمال ووجهة النظر التي ننظر منها إلى كل منهما[5].

بينما يرى آخرون أن الدين قد يتجوز فيه فيطلق على الأصول خاصة فيكون بمعنى الملة، وقد يتجوز فيه أيضاً فيطلق على الفروع خاصة، يعني فروع هذه الأصول..ثم تتم التفرقة بين الدين، والملة، والمذهب، والشريعة؛ فالدين منسوب إلى الله،والملة إلى الرسول، والمذهب إلى المجتهد، وأما الشريعة فتضاف إلى الله والنبي والأمة، وهي من حيث أنها يطاع بها تسمى ديناً،ومن حيث أنها يجتمع عليها تسمى ملة وكثيراً ما تستعمل هذه الألفاظ بعضها مكان بعض، ولهذا قيل أنها متحدة بالذات ومتغايرة بالاعتبار[6].

ويعد الدين في الغالب جزءًا أصيلاً من فطرة الإنسان وحاجة بشرية حقيقية لا غنى عنها، وربما أمكن الإنسان أن يستغنى عن العلم، كالبدائيين من البشر، ولكن لم تر جماعة في مكان ما أو زمان ما استغنت عن الدين[7]. ومن هنا يأتي الطويل سائرًا على نفس الدرب في فهم معنى الدين، فيقول: " للدين تعريفات شتى سبق إليها المفكرون والعلماء ورجاء الدين....، وليس في نيتنا أن نخوض في متاهاتها"[8].

---

[4] المرجع السابق، الموضع نفسه.

[5] محمد عثمان الخشت: تطور الأديان، ص17.

[6] عبدالمنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، ص 359، (مادة دين).

[7]: الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مكتبة الرياض الحديثة، السعودية، د.ت، ص17.

[8] توفيق الطويل: دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة في مصر المعاصرة، بحث منشور بكتاب قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص216.

والدين عنده هو الموحى به من قبل الله إلى أنبيائه الذين يختارهم من عباده، ويقصد بالدين في الغالب إما اليهودية أو المسيحية أو الإسلام.

وعن دور الدين -أي دين- في حياة البشر يرى الطويل أن: "استقراء التاريخ من قديم الزمان يشهد بأن الشعوب لا تحيا بغير دين تعتنقه، وفي صميم الدين -أي دين- ثقافة لا غنى عنها للشعب الذي يدين به، ومن الضلال أن يظن بأن من الممكن بناء ثقافة لشعب من الشعوب تخلو من الثقافة الدينية، وثقافة الإنسان تتمثل في نظرته إلى الحياة ومشاكلها"[9].

وكما أن الدين عنده ضرورة للفرد والمجتمع، فإنه أيضًا يعد ضرورة في نظر الملحدين! ويرى أنه يكفى دليلاً على أهمية الدين عند الملحدين من الحكام والمفكرين ما ذهبت إليه طائفتان من الزنادقة والشكارة: طائفة الملحدين من الحكام السياسيين، وطائفة اللا دينيين من المفكرين والفلاسفة، فأما عن الطائفة الأولى فاستقراء التاريخ يشهد بأن الحاكم اللاديني الذي قد أدرك من قديم الزمان أن استقامة مواطنيه واستتباب الأمن في بلاده يكفله إيمانهم بالدين والتزامهم بتعاليمه أكثر مما تكفله شرطة الأمن، حيث أن المؤمن يستجيب -بصورة فعالة وأكثر من إطاعته لأي أمر آخر- لتعاليم الدين التي تقضي باستقامة السلوك والانصراف عن كل ما يؤذي الناس ويضر بمصالحهم، وهو يعلم أن الله يعلم السر وأخفى، فيتحاشى النزوع إلى ارتكاب الجرائم والفواحش مخافة الله وعقابه يوم الحساب[10].

وكأن الطويل هنا يعضد وجهة نظر مكيافيللي Machiavelli في أن الحاكم السياسي الذي إذا لم يؤمن بالدين ولم يحفل بتعاليمه، يحرص في العادة على نشر الدين بين رعاياه، ويزيد فيتظاهر بالتمسك بشعائره أمام مواطنيه حتى يكون قدوة لهم جميعًا، ولكن يجب ألا يُفهم من ذلك إعراض الطويل عن الدين وعدم الاكتراث له كما كان الحال عند مكيافيللي، ولكنه يريد فقط إبراز دور الدين عند الحكام الملحدين

---

(9) المصدر السابق، ص216.

(10) المصدر السابق، ص217.

حتى لا يصادفون أيه متاعب في حكمهم، ومن ثم تصير دولتهم آمنه، سعيدة، تعيش في رعاية الله!

وأما طائفة الملحدين من المفكرين، فيرى الطويل أن الدين كان له دورًا كبيرًا عندهم. فهم إذا كانوا عادة ينكرون الوحي الإلهي، ويعتقدون أن الدين ظاهرة اجتماعية نشأت -كغيرها من الظواهر الاجتماعية- متى اجتمعت طائفة من الناس في أي ركن من أركان الأرض، وفي أي عصر من عصور التاريخ، فينجم عن تفاعل أفرادها بعضهم مع بعض تلك الظاهرة التي أصبحت دينًا يعتنقونه، وتوارثها بعضهم جيلاً بعد جيل...! فإنهم بالرغم من هذا التفسير الذين ذهبوا إليه كانوا يرون الدين ضرورياُ للمجتمع -أي مجتمع- وللأفراد الذين ينتمون إليه، ومن هذا المنطلق لم يكتفوا بإنكار الدين المنزل بوحي إلهي، وإنما أنشئوا هم أديانًا سموها حينًا بالدين الطبيعي، وحينًا بالديانة الإنسانية[11]. وما كان ذلك منهم إلا لمعرفتهم سمو مكانه الدين وعظمته في نفوس البشر.

ويذكر الطويل من هؤلاء المفكرين "ديفيد هيوم" الذي عرض للدين الطبيعي في كتابين أولهما: "محاورات في الدين الطبيعي"، وثانيهما "التاريخ الطبيعي للدين"، وفيهما أثار هيوم الشك في إمكان التدليل على وجود الله أو الحياة الآخرة، متأثرًا في ذلك بمعاصريه من الفلاسفة الفرنسيين والانجليز في الدين الطبيعي - إبان القرن الثامن عشر- فالدين الموحي به من عند الله ينقلنا إلى مجال يتجاوز حدود العقل، وهما قوام العلم، وحسبنا في التدليل على الدين أن نظام الكون يشهد بوجود عقل مدبر[12]. ولذلك يمكننا القول بأن الدين عند هيوم ليس شيئًا طارئًا على الإنسان ولا أمرًا على هامش الحياة، بحيث يمكن طرحه والاستغناء عنه في عصر من العصور، ولا يمكن أن نقول أيضًا أن الدين قد انتهى دوره وأخلى مكانه للعلم الحديث، الأمر نفسه عند أوجيست كونت A.Comte ووليم جيمس W.Games فالأول وهو إمام

---

[11] المصدر السابق، ص218.

[12] المصدر السابق، ص218.

الفلسفة الوضعية Positivism التي تكتفي عن كل شيء بالعلم والواقع المحسوس والمنفعة العاجلة، وتكفر بكل ما عدا ذلك من أفكار أو عقائد أو قيم، إلا إنه مع ذلك يرى أن المجتمع في حاجة ماسة إلى مجموعة منظمة من العقائد تكون موضع اتفاق بين أفراد المجتمع، ولا يتيسر هذا إلا بإلغاء الأديان القائمة وصهرها في دين جديد هو في نظره الدين الوضعي الجديد الذي يتمثل في عبادة الإنسانية من حيث هي فكرة تحل مكان الله في الديانات المنزلة، يقول كونت: إذا أردنا تحقيق مجتمع يسوده النظام من أجل التقدم، فيجب أن ننشئ لديه، وإلى أقصى حد ممكن (ديانة ملائمة) وقد رسم كونت لديانة الإنسانية طقوسًا ونظمًا ينبغي أن يتجه إليها الجنس البشري لعبادتها لأنها "الكائن العظيم ونحن أعضاؤه!!" وبهذا الديانة تتحقق وحدة دينية في البشرية كلها، وعندئذٍ يتلاشى الشر وتختفي المنازعات والحروب وتعيش الأجناس البشرية الثلاثة الأبيض والأصفر والأسود في عصر ديني ذهبي(13).

ثم يذكر الطويل "وليم جيمس" أكبر أعلام الفلسفة العملية (البرجماتية في أمريكا) حقيقة أنه يؤمن بإله، ولكن الله عنده ليس إله الأديان المنزلة، إنه يتجاهل الدين السماوي ويبشر بالديانة الإنسانية، وهي عنده تعلو في الدرجة وتسمو في المعنى على الديانات الفائقة للطبيعة وقد استند هيوم -كما يقول الطويل- إلى التجربة للتوصل إلى نتائج تشهد بقيمة الدين وحقيقته(14).

وكان أثر استناد وليم جيمس إلى التجربة فيما يخص الدين خطيرًا ومفزعًا، حيث جعله في النهاية يعتبر الظاهرة الدينية ظاهرة مرضية عصابية يهتم بها علم النفس المرضي، وجردها من كل قيمة، ورأى أيضًا -كما أورد الطويل- أن الصوفية والقديسين تبدو عليهم أعراض عصابية تتمثل في ايحائاتهم وعباراتهم، فهم مخرفون جانحون، فمعيار الحكم على الدين هو التجربة والتي تكشف عن حقيقة تأثيره في

---

(13) المصدر السابق ، ص219،

(14) المصدر السابق، ص220..

تحقيق سعادتنا والدوافع التي تحملنا على العمل، ليخلص" وليم جيمس" إلى حقيقة فحواها أن المهم في الدين نتائجه وآثاره في حياة الفرد ومسيرة المجتمع[15].

ولا يعتبر الطويل رأي "وليم جيمس" غريبًا أو شاذًا وخاصة إذا نظرنا إليه في ضوء الفلسفة البرجماتية التي كانت في جوهرها نظرية في ماهية الحق ومنهجًا لإقرار الحقيقة واتفاق الرأي بصددها، فالحقيقة عندهم اختراع شيء جديد وليس اكتشاف شيء موجود، ومقياس صوابها يبدو في مدى نفعها في دنيا العمل، ووظيفة العقل وضع الخطط التي تمكننا من السيطرة على الأشياء وتسخيرها لمصلحة الإنسان، والدين الصحيح هو الذي يسلم إلى التفاؤل، دين الخير للمجتمع، ومن الخطأ مع هذا أن نقيم الدين على أساس عقلي ويدرسه دراسة موضوعية، فإن المهم أثره في حياة صاحبه[16].

وهكذا يثبت الطويل أهمية الدين بالنسبة للمجتمعات ولأفراد هذه المجتمعات كما يثبت أن حاجة الإنسان إلى الدين ليست حاجة ثانوية ولا هامشية إنها حاجة أساسية أصيلة، تتصل بجوهر الحياة وسر الوجود، وأعمق أعماق الإنسان، ومن هذا المنطلق أيضًا يرى أنهم حيث أنكروا الأديان المنزلة بوحي إلهي اخترعوا أديانًا أوجبوا على الناس اعتناقها لأنها تحتوي على ثقافة لا غنى عنها لحياة الفرد ومسيرة المجتمع[17].

ثانياً:- التوافق بين الدين والقيم الإنسانية

يرى توفيق الطويل أن قديم الإسلام حي وجديد باطراد، وأصوله ومبادئه صالحة لكل زمان ومكان، فقد أقر الإسلام حقوق الإنسان المهدرة في القرن العشرين، وسبق بذلك القرن الثامن عشر الذي يعدونه قرن حقوق الإنسان فقد أيد الإسلام هذه الحقوق ومكن لها وجعل منها دينا ودنيا وأقامها على دعائم أخلاقية وروحية

---

[15] المصدر السابق، ص220.

[16] المصدر السابق، نفس الموضع.

[17] المصدر السابق، نفس الموضع.

تسمو كثيرًا على ما جاء به ميثاق الأمم المتحدة عام 1948. وحقوق الإنسان التي تفاخر الحضارة الغربية بالكشف عنها، قد أقرها الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا[18].
فإذا كان الإعلان العالمي لحقوق الإنسان الصادر في ديسمبر (كانون الأول) من عام 1948، قد اعترف بكرامة بني الإنسان المتأصلة، وبحقوقهم الثابتة المتكافئة على أساس من الحرية والعدالة في العالم، واعتبار أن إغفال حقوق الإنسان وازدرائها ينجم عنه أعمال وحشية أثارت سخط الضمير الإنساني، وأعلن الناس أن أسمى ما تصبو إليه نفوسهم هو إيجاد عالم يتمتعون فيه بحرية القول والعقيدة، ويتحررون فيه من الخوف والعوز، وقد تضمن هذا الإعلان قيمًا إنسانية من قبيل : المساواة بين الناس في الكرامة والحقوق، وحق السيادة الكاملة على ممتلكاته، والحق في الحياة والحرية والأمن الشخصي، والدفاع عن النفس، والحفاظ على الخصوصية الشخصية، وحرية التنقل وحق اللجوء السياسي، وحق الانتماء إلى جنسية من الجنسيات، وكفل أيضًا حرية الفكر والضمير والدين، وحرية الرأي والتعبير عنه، وحق العمل، والحق في الراحة والفراغ، والحق في التعليم، وحق حماية المصالح الأدبية والمادية لكل إنسان..... الخ[19].
وهنا يرى توفيق الطويل أن كل هذه القيم الإنسانية السامية التي تضمنها ميثاق الأمم المتحدة وحقوق الإنسان قد أقرها الإسلام منذ القرن الأول الهجري، وكفل للإنسان حرية الاعتقاد وحرية الفكر، وحرية الرأي والتعبير، وحرية العمل وحرية التعليم وحرية التملك والتصرف، وفي آيات الكتاب البينات شواهد ناطقة بذلك فيقول : "وقد حرص الإسلام على حماية النفس البشرية وتقديسها مع إنها اليوم مهدرة، ساعدت الحروب العالمية والإقليمية على الاستخفاف بها، كما أقر

[18] المصدر السابق، ص222.
[19] أنظر : الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ملحق بكتاب مشكلات فلسفية، طبعة وزارة التربية والتعليم، مصر، 1954، ص271 – 275.

الدين حقوق المرأة وبشر بالتسامح الديني، ودعا إلى المعاملة الكريمة للمؤمنين من أهل الكتاب، وانفتح على الأمم ذات الحضارات القديمة[20].

فالإسلام دين حضارة، تعاليم وسلوك، عقيدة وفلسفة، وأساس حضارته الأخوة الإسلامية، فلا تفرقه لحسب أو نسب، ولا لجنس أو لون، أخوة كتلك التي دعت إليها الرواقية من قبل، ونريد اليوم أن نستعيدها في ثوب المواطن العالمي، وقد دعا الإسلام إلى حرية الرأي والفكر، وخلص العقل من سلطان الماضي وتحكم الآباء، واستعباد العرف والتقاليد، وحكم المسلمون عقولهم فيما صادفوا من شئون الدين والدنيا مما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة وكان للاجتهاد بالرأي أنصار ومؤيدون يشرفون على هدية ويفتون على ضوئه[21].

وهكذا عمل الدين على احترام القيم الإنسانية السامية - كما بين توفيق الطويل - واهتم بها ونبه إليها الأذهان، بعد ما طغت الحروب العالمية على القيم الإنسانية وكادت المادية الحديثة أن تؤدي بها. كما أشار الطويل إلى إقرار الإسلام لحقوق المرأة الذي سوف بينها وبين الرجل تسوية تكاد تكون تامة، وإشارته أيضًا إلى إقرار الإسلام مبدأ الشورى وإجماع أهل الحل والعقد وجعله مصدر من مصادر التشريع الإسلامي وذلك عند افتقار النص والسابقة التي يقاس عليها[22].

ومن ثم عمد الطويل على إبراز التوافق بين الدين والقيم الإنسانية على أكمل وجه ممكن.

ثالثاً:- التوافق بين الدين والقيم الخلقية

ساعد موقف الإسلام من القيم الإنسانية على إبراز ذلك التوافق بين الدين والقيم الخلقية؛ لأن هناك ارتباطا وثيقًا بين تلك القيم الإنسانية وتلك القيم الخلقية

---

(20) توفيق الطويل : دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة في مصر المعاصرة، ص223.

(21) المصدر السابق، ص223.

(22) المصدر السابق، ص223.

المتضمنة في فلسفة الأخلاق، حيث أن الأصل في فلسفة الأخلاق أن وظيفتها - عند المثاليين العقليين- هو وضع مثل أعلى أو مبدأ إنساني ينبغي أن يسير بمقتضاه السلوك الإنساني بما هو إنساني. أي غير مرتبط بزمان أو مكان، ولا مقيد بظروف وأحوال وهم بذلك يخاطبون أسمى جانب في طبائع البشر، وهو الجانب العاقل الذي يتساوى فيه جميع الناس دون استثناء، أما الحسيين والتجريبيين قد رفضوا القول بوجود مبادئ إنسانية تصدق في كل زمان ومكان، وقالوا إن الطبيعة البشرية ليست واحدة في الناس جميعًا، وأن الضمير الأخلاقي ليس واحدًا عند الناس في كل مكان وزمان، واتجهوا إلى القول بأن وظيفة علم الأخلاق (أو فلسفة الأخلاق فمفهومهما واحد عند الطويل) هي دراسة الوقائع الخلقية الجزئية بمناهج الملاحظة الحسية للتوصل إلى وضع قواعد أخلاقية - متغيرة زمانًا ومكانًا. تفيد الفرد في حياته وتنفع المجتمع في مسيرته[23]. ورد المثاليين العقليين على الحسيين التجريبيين بأن أقروا وجود قيم أو مبادئ جزئية نسبية متغيرة بتغير الزمان والمكان، وهذه التي يدرسها علم النفس وعلم الاجتماع، أما الفلسفة فإنها العلم الكلي والمطلق الذي يدرس القيم العليا الإنسانية التي تتخطى الزمان والمكان.

ومن التوافق بين الدين والقيم الإنسانية إلى التوافق بين الدين والقيم الخلقية، حيث يقر الطويل بأنه ليس من المفكرين خلاف في إنسانية المبادئ الخلقية وإنما ينشأ الخلاف في تطبيقات هذه المبادئ على الحالات الجزئية، فالناس جميعًا - متمدينين أو متخلفين، متعلمين أو جهالاً، يسلمون بالمبدأ القائل بأن رد الأمانة إلى أهلها فضيلة، ولكنهم قد يختلفون فيما ينبغي أن أفعله حين يودع إنسانًا مسدسًا، ثم يطلبه ليقتل به شخصًا وأنا أعلم ذلك، قد يقول قائل: عليك أن ترد عليه أمانته (وديعته) وهو مسئول عما يفعل، وقد يقول غيره : إن رددت عليه وديعته كنت

(23) المصدر السابق، ص230.

مشاركًا له في جريمته، وهنا يقرر الطويل بأن هناك اتفاق حول المبدأ والكلي، ولكن الخلاف يقع في تطبيقه على الحالات الجزئية(24).

ويدرأ الطويل ذلك الخلاف المزعوم بين بعض المبادئ المعروفة في فلسفة الأخلاق ومبادئ الإسلام، ويرى أن مثل هذا الزعم أو هذا القول هو قول متهافت ومرفوض؛ لأن مبادئها إنسانية وبالتالي لا يمكن أن يكون بينها وبين مبادئ الإسلام تعارض(25).

ومن هنا نلمح بوادر نظرة توفيقية عند الطويل؛ حيث يرى أنه لا تعارض بين الدين والفلسفة بصفة عامة، حيث أثبت في مواضع شتى من مؤلفاته فساد القضية التي تقول إن التفلسف يقتضي الإلحاد ولا يستقيم مع الإيمان، ولا يعتقد أيضًا في صحة العكس، أي أن الإلحاد يمنع التفلسف، وإنما يقرر أن في الإمكان الجمع بين الإذعان لمنطق العقل والإيمان العميق بوحي الدين، بل إنه بإمكان الإنسان أن يكون فيلسوفًا مبدعًا مع وفائه لعقيدته الدينية وإيمانه بوحيها، وقد اجتمع التفلسف الصادق والتدين العميق عند الكثيرين أمثال القديس توما من المؤمنين المدرسيين في أوروبا، وعلماء الكلام في الإسلام(26).

وعود على بدء يرى الطويل أن هناك توافقًا ظاهرًا جليًا بين مبادئ الفلسفة الخلقية وبين مبادئ الدين الإسلامي، حيث إن الأولى قد عرفت مبادئها تلقائيًا وآليًا قبل نزول الأديان، لم يبشر بها نبي أو فيلسوف أو مصلح اجتماعي، إنما نشأت تلقائيًا، فما اجتمعت طائفة من الناس في أي ركن من أركان الأرض، وفي أي عصر من العصور إلا وقد نجم عن تفاعل أفرادها وتعاملهم بعضهم مع بعض قيم أو معايير تميز لهم بين الحق والباطل، الخطأ والصواب، الخير والشر، الجمال والقبح.......الخ.

---

(24) المصدر السابق، الموضع نفسه.

(25) المصدر السابق، ص231.

(26) توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة، لجنة الجامعيين لنشر العلم، السلسلة الفلسفية والاجتماعية (4)، القاهرة د.ت، ص4-5 .

وحين دعت إليها الأديان السماوية، والمعتقدات الأرضية - كالبوذية والكونفشيوسية وغيرها - وتوصلت إليها مذاهب الفلسفة الخلقية، بدت هذه القيم أو المبادئ على اتفاق كامل امتنع معه التعارض لإنها إنسانية لا تقف عند مكان دون مكان، ولا ترتبط بعصر دون عصر؛ فإذا دعا الإسلام إلى تجنب الكذب والتزام الصدق في القول، كان من غير المعقول أن يظهر فيلسوف أخلاقي ينتهي من بحثه العقلي إلى ضرورة الاستخفاف بمبدأ الصدق واحترام الكذب قاعدة أخلاقية في معاملات الناس بعضهم مع بعض...!! ويقال مثل هذا في كل القيم العليا[27].

ومن هنا يلعب هذا التوافق بين القيم الدينية والقيم الأخلاقية دورًا فعالاً في حياة المجتمعات، وخاصة عندما تحول عند المؤمنين بها إلى سلوك في حياتهم العملية، ويصير الإيمان بهذه القيم الإنسانية في طابعها الأخلاقي ثقافة عالية لا غنى عنها لكل إنسان متحضر في كل أقطار الأرض.

وقد راودت تطبيق تلك المبادئ الأخلاقية الفلاسفة من قديم الزمان في مجتمعاتهم أو في مدن مثالية[28] (Utopia)- عندما عز مطلبهم-،تجاوزوا فيها تصوير الواقع الأليم إلى تصور ما ينبغي أن يكون، والتعبير عنه في مبادئ إنسانية عامة تلتقي عندها كافة الأمم على صعيد إنساني يرتفع بها إلى حياة أفضل بفضل قيم عليا تمثل

---

[27] توفيق الطويل : دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة في مصر المعاصرة، ص231.

[28] اليوتوبيا Utopia : مجتمع مثالي يتخيله صاحبه نموذجًا للكمال، ويدفع إلى تصوره ضيق بالواقع وتطلع إلى الكمال، أشهر صورها : جمهورية أفلاطون قديمًا، والمدينة الفاضلة عند الفارابي، ومن أمثلتها حديثًا يوتبيات توماس مور، وفرنسيس بيكون في أطلنتس الجديدة، وكانط في السلام الأبدي.. وغير ذلك كثير، يمكن الرجوع إلى : ماريا لويز برنيري : المدن الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (225)، 1997.

في الأمن والسلام، وإقرار الحرية والكرامة، وتوكيد العدالة، وتوفير أسباب المعرفة ووسائل العيش الرخي، ومنع الخوف والقلق والجوع والجهل والمرض...... وغير ذلك مما حرصت على توكيده أو دعت إلى محاربته قيم عليا يلتقي على طريقها الناس أفرادًا وجماعات وأممًا في كل زمان ومكان[29].

ثم يقرر الطويل بأننا في أمس الحاجة إلى تمثل هذه المبادئ الأخلاقية، ويا حبذا لو استطاع المثقفون الذين يستوعبون مذاهبها أن ينشروا ذلك الجانب الروحي بين المثقفين من المواطنين في عصرنا الراهن، ذلك الذي افتقد روحه يوم أعوزته الثقافة الدينية والأخلاقية الصحيحة[30].

ومن هنا جاءت توصياته بضرورة الانتباه إلى دور الدين في حياة الفرد ومسيرة المجتمع والتي توجب الاهتمام به في مراحل الدراسة قبل الجامعة، ويرى أيضًا ضرورة اهتمام أجهزة الإعلام بنشر الثقافة الدينية، وتحاشى تلك المواعظ والفتاوى التي تتعارض مع النصوص الدينية وتتنافى مع الروح العلمية ولا تتسق مع منطق العقل، أو تلك التي تدعو إلى العزلة وعدم الانفتاح على الآخر، كما يرى ضرورة توقيع عقاب صارم على المشتغلين بالدين أو شعائره إن تهاونوا في تنفيذ تعاليمه أو تحللوا من التزاماته حتى لا يكونوا قدوة سيئة لغيرهم[31].

ثم يقر الطويل ذلك التوافق البيِّن بين الدين والقيم الأخلاقية والإنسانية من خلال تساؤله في نهاية بحثه القيم والهام فيقول: "هذه هي فلسفة الأخلاق والقيم الإنسانية التي توصل إليها الفلاسفة، فما وجه التعارض بين مبادئها ومبادئ الإسلام؟ "[32].

رابعاً:- التفرقة بين الدين والفكر الديني

---

[29] توفيق الطويل : دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة في مصر المعاصرة، ص233.

[30] المصدر السابق، ص236.

[31] المصدر السابق، ص236- 237.

[32] المصدر السابق، ص233.

دعا توفيق الطويل إلى ضرورة النظر إلى الدين بنظرة جديدة تتلاءم مع روح العصر، فنجده يعيب على رجال الدين جمود رؤيتهم وعدم تطوير نظرتهم إلى الإسلام بحيث تساير حياتنا المعاصرة، وهو ما أدى إلى تجميد الدين في رؤوسهم وعلى أقلامهم وألسنتهم في وقت يتطور فيه العلم بأجهزته الحديثة تطورًا رهيبًا، يسر حياة الناس وشكلها على الأرض في صورة جديدة، أما رجال الدين فمازالوا يجترون نفس الأساليب التي كان تستخدم قديمًا في عهد السيوف والرماح[33].

والإسلام كدين يدعو إلى التعقل المبني على برهنة محكمة كمرحلة من مراحل التفكير من أجل الوصول إلى الحقيقة، ولهذا يخاطب القرآن الكريم ذوي الألباب أو أهل العقول ويدعو الجميع للتفكر في الأنفس والآفاق. وقد أبطل القرآن إدعاء بعض الفلسفات والأديان التي تقول بأن الإيمان ميدان بعيد عن العقل، ولابد لمن يريد الإيمان أن يعطل عقله أو يتبع ما عليه الآباء والأجداد[34].

والفكر الديني هو كيفية فهم قضايا الدين وتصوراته، ويتضمن الفكر وحده، أي ميدان التصورات وليس ميدان الشعائر والطقوس والممارسات العملية إلا من حيث هي تعبير عن فكر، ومع ذلك لا ينفصل الفكر الديني عن الفكر العلمي الطبيعي والفكر الأخلاقي والفكر الاجتماعي السياسي.

إذن فهناك فارق بين الدين والفكر الديني عند توفيق الطويل، الدين لا غبار عليه، هو في مجمله وحي سماوي جاء من أجل إسعاد البشرية، متمشيًا مع كل العصور والأزمان، متجدد وحيوي، يتطلب قراءات تلائم الحياة الجديدة، وتفسر آياته تفسيرًا متطورًا متجددًا مع حياة الناس، ولكن رجال الدين يجدون دائمًا ما يصدهم عن الحركة ويمنعهم من التجديد المساير لتطورات الحياة. فيظهرون في معظم أقطار الأمة عاجزون عن الفهم العميق لروح النص الديني، فيصدرون

---

(33) توفيق الطويل : دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة في مصر المعاصرة، ص226.

(34) محمد عثمان الخشت: تطور الأديان، ص65.

فتاوى وأحكامًا دينية تبدو متخلفة عن النصوص الدينية، متعارضة مع روح العلم، متنافية مع منطق العقل، فهي إما أن تخنق الناس بالدين فتحملهم ما لا طاقة لهم به -بالرغم من أن الدين يسر، وأن الله تعالى لا يكلف نفسًا إلا وسعها- أو تجعلنا- نحن معشر المسلمين مثار سخرية الأمم الأخرى[35]. ويعطي توفيق الطويل الدين مكانة فريدة، فيجعله العامل الأول الذي تحكم دائمًا في تاريخنا، فالتاريخ عنده هو ذلك التاريخ الذي صنعته فئات الشعب المتألقة بفضل الدين وخاصة في جانبه الصوفي، وليس هو التاريخ الذي يقوم على تاريخ حياة الملوك ولا يستند إلى تتابع الدول التي تولت الحكم. وإذا عدنا إلى الدين ورجاله نجد أن الطويل -يؤكد منذ البداية- رفضه لكل سلطان دنيوي لرجال الدين، فمن حق رجال الدين -على حد قوله- أن يكون لهم في نفوس الناس سلطان روحي واسع النطاق. أما أن يتهيأ للمتشددين منهم سلطان دنيوي يمكنهم من التحكم في رقاب الناس فذلك هو الخطر المبين الذي يشهد به استقراء تاريخ الفكر من أقدم العصور، وهو بذلك يتفق مع ج.ب.بيوري J.B.Bury ويرى أنه كان على حق حين رد في كتابه عن "تاريخ حرية الفكر" أكبر نصيب في تبعة هذه الاضطهاد الآثم إلى "السلطة الزمنية" التي تهيأت لرجال الاكليروس ومكنتهم من اجتياح خصومهم ومحاولة القضاء على آرائهم.. وكذلك يرى صدق "أندرو ديسكوت هوايت A.D.white" حين عرض في سفره الضخم بمجلديه عن "تاريخ النزاع بين اللاهوت والعلم" إلى رد النزع بين الإيمان والعقل إلى اللاهوت المتعسف Dogmatic theology وليس إلى الدين السمح، فبرئت بهذا ساحة الدين من آثام غلاة المتعصبين من رجاله[36].

فما من فرصة أتيح لهم فيها السلطان إلا فرضوا فيها رقابتهم الجائرة على مخالفيهم في الرأي ومن كانوا من أحرار الفكر، وأوقفوا تقدم المعرفة، وعرقلوا نشاط العقل

---

[35] توفيق الطويل : دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة، ص226.

[36] توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص6.

وعاقوا حرية النظر وأوصدوا أبواب الإبداع في التفكير فجمدت الحياة ووقف التقدم[37].

ومن هنا كانت إدانة توفيق الطويل لكل صنوف الاضطهاد الآثمة التي تعرض لها رجال الفكر على أيدي المتزمتين من رجال الدين ممن علا نفوسهم صدأ الجهل، وأفسد تفكيرهم ضيق الأفق، فاستحالت سماحة الدين في نفوسهم إلى شغف بالاضطهاد الملطخ بالدم نابًا ومخلبًا، فكان التعصب المقيت والتزمت البغيض الذي يبعد صاحبه عن نور الإيمان الصحيح ويرده إلى أحط مراتب البهيمية، ويرمي به إلى حضيض الوحشية، ولم يكتف توفيق الطويل بإدانة كل صور الاضطهاد والتعصب والإرهاب الوحشي باسم الدين، بل إنه تتبع تاريخيًا العديد من الاضطهادات الدامية التي شنها رجال الدين من منطلق تأويلاتهم المتعسفة للدين، وبدا ذلك واضحًا في كتابه "قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام" الذي أهداه إلى الشيخ مصطفى عبد الرازق، الذي زاوج بين الإيمان والتسامح، والحق أن الكتاب في مجمله دعوة كريمة إلى التسامح، وإنكار مطلق لكل تعصب، واحترام عميق لحرية الاعتقاد، حيث يقول الطويل في مقدمته لهذا الكتاب "هذا كتاب يحكي في نطاقه الضيق سيرة فكرة آثمة، ترف بها قلوب تغلي حقدًا وتضطرم تعصبًا، فتوغل في ارتكاب الإثم وتحمل الدين وزر ما تريق من دماء بريئة، وما تجتاح من مبادئ إنسانية كريمة! وعلى كره منها مضت مواكب الحرية في طريقها قدمًا لا تتوقف ولا تتعثر، إلا لتستأنف سيرها في نشاط يحدوه الأمل الباسم، وتوقده الغبطة بالظفر المبين"[38].

وبذلك عمل على تبرئة الأديان من تبعات الاضطهاد، فالأصل في الأديان على حد قوله إنها رسالة الحب إلى النزاعين للحقد والبغضاء، ودعوة السلام إلى التواقين

---

(37) المصدر السابق، ص3.

(38) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947، ص7.

للقتال الراغبين في إهراق الدماء، ونداء الرحمة والتسامح إلى المشائين بالقسوة والانتقام[39].

ثم يستطرد الطويل مدافعًا عن الدين ومفرقًا بينه وبين الفكر الديني، فيرد على الزعم القائل بأن الإسلام انتشر بالسيف -كما يذهب ويدعي البعض- قائلاً: "ينطوي هذا القول على بهتان عظيم، فما دعا الإسلام للقتال إلا ردًا لفتنة المؤمنين عن دينهم؛ لأن الفتنة أكبر من القتل... وقد نزل القرآن الكريم داعيًا للحب مبشرًا بالتسامح منفرًا من إكراه الناس على اعتناق الإسلام بقوله تعالى "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي" وليس لأحد من رجال دينه على أحد سلطان؛ بل ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا مذكر ومبلغ "فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر"[40]. ومن هنا كانت إدانة الطويل لكل تعصب، فالإيمان لا يستلزم التعصب ولا يقتضي التزمت إلا عند من صدئت قلوبهم وأظلم الجهل عقولهم، ومن هذا المنطلق كان الخطر كل الخطر في استحواذ أهل التزمت من رجال الدين على سلطة زمنية تمكنهم من إيذاء خصومهم، فإذا كان من خصائص الإيمان التزمت أن يخرج أهله من كل مذهب يخالف عقيدتهم ويميلوا إلى التنكيل بصاحبه، وجب أن يجرد غلاة المتعصبين منهم من كل سلطة تيسر لهم أسباب الاضطهاد، وبهذا يبقى للإيمان جلاله مع تلافي ما يحتمل أن ينجم عنه من سوء[41].

وكما رفض الطويل التعصب الديني وأدانه بشدة، رفض أيضًا مفهوم الثورة الدينية، ففي رأيه أن الإنسان الوديع يتحول في غمار الثورة إلى حيوان مفترس يتلذذ بارتكاب ما كان يفزع من مجرد تصوره ويسعى إلى عمل ما كان ينفر منه ويتقزز، وفي هذا الصدد يستشهد توفيق الطويل بتاريخ الثورة الفرنسية، فالذين

---

(39) المصدر السابق ، ص11.

(40) توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام، ص16.

(41) المصدر السابق، ص16.

ارتكبوا فظائعها لم يكونوا من المجرمين السفاكين، بل كانوا من المستنيرين الذين ظن البعض أن التعليم قد هذب طباعهم ورقق مشاعرهم.

وهكذا يندد الطويل كل التنديد بالعنف الديني، ويتساءل ما قيمة العنف في إقرار الباطل مكان الحق؟! قد يكون الباطل مغريًا فيجذب الناس إلى اعتناقه، ولكن دولته لا تدوم طويلاً، وإذا تولى السيف حماية الباطل حينًا لا يلبث بعده أن يزهق ويتداعى وتتكشف حقيقته للعيان، وقد ينصرف عن الحق من عميت بصيرتهم وكفوا عن النظر الصحيح، ولكن ذلك العمى لا يطول فسرعان ما تهديهم إلى الحق الفطر السليمة، ويجذب إليه الأعوان الذين يتكاثر عددهم بمرور الأيام... فجانب الحق في كل دين كفيل بأن يطيل بين الأمم بقائه[42].

ويرى أن ذلك العنف يكون أكثر ضراوة من جانب أصحاب الفكر الديني تجاه أهل العقل من أحرار الفكر، إذا اجتمع لهم (أي لأصحاب الفكر الديني) أمران يدور اجتماعهما مع النزاع وجودًا وعدمًا، أولهما أن تتهيأ لرجال الدين سلطة تمكنهم من اضطهاد العقل وإيذاء رواده، فإن أعوزتهم السلطة قنعوا بالغيبة وانتقموا بالنميمة أو لاذوا بالعقل وجاروا خصومهم في الاحتماء بشريعتهم... فلا يلبث منطقه حتى يثير الشقاق في معسكرهم، ويفت في عضد دعوتهم. وثانيهما أن يوجد عقل يقوى على اقتحام "منطقة الحرام" وارتياد آفاقها، والانتهاء منها إلى اكتشاف مجهول أو إنكار مألوف، وعندئذٍ بفضل جرأته ويقظته، يكون أهلاً لاضطهاد خصومه. ثم يقرر الطويل أنه بغير اجتماع هذين العاملين لا يقوم بين العقل والإيمان نزاع[43].

وفي مقابل كل صور التعصب والاضطهاد وكل مظاهر الثورات الدينية يجد توفيق الطويل فكره منجذبًا ناحية المبادئ الإنسانية الجميلة التي بشرت بها الأديان ودعا إليها رواد النزعات الإنسانية الصادقة من أهل التصوف والفلسفة ودعاة الإصلاح

---

(42) المصدر السابق ، ص30.

(43) توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص7.

السلمي والمقاومة السلمية من أمثال غاندي وتولستوي[44]. ومن ثم كان انحيازه لرواد الإصلاح الديني، وليس لأصحاب العنف والثورات الدينية مؤكدًا رفضه لكل صور الاضطهاد حتى لو كانت باسم الدين، فالاضطهاد عدوان على حرية الضمير، ومناقضًا لكل النواميس الأخلاقية.

كما تبدو حملة الطويل على كل صنوف الاضطهاد الديني في ضوء المنظور الأخلاقي مثالاً عمليًا يؤكد التناغم والتوافق بين أركان رؤيته المتكاملة في جميع جوانبها، بين فلسفة الأخلاق والقيم الإنسانية من ناحية، وبين المبادئ الدينية من ناحية أخرى، ومن هناك كان تفنيده لتلك الاعتراضات الموجهة إلى فلسفة الأخلاق من منطلق تعارضها مع مبادئ الإسلام. فالمبادئ الأخلاقية مبادئ إنسانية وبالتالي لا يمكن أن يكون بينها وبين مبادئ الإسلام تعارض، ولا غرو في هذا، فالإسلام قد أقر الأخوة والعدالة والمساواة.. إلخ، وعلى هذا فإنه لا ينبغي تحميل مسئولية الاضطهاد الديني على النصوص الدينية البريئة من كل شبهة قد يحاول البعض لغرض ما في نفسه أن يلحقها بها.

وهكذا بدا هناك فرقًا واضحًا بين الدين والفكر الديني عند توفيق الطويل، الدين يدعو إلى الحب والتسامح والأخوة والعدالة والمساواة، حيث لا فرق بين أبيض أو أسود، غني أو فقير، عربي أو أعجمي إلا بالتقوى. والفهم الصحيح للدين يتسم بالصفاء والنقاء والتسامح، وعندئذ يكون الفكر الديني صحيحًا وايجابيًا، ويكون كذلك أيضًا إذا كان دعوة صادقة لنبذ كل تطرف وإرهاب واضطهاد باسم الدين، حيث ينبذ كل دين كل عنف وتطرف ومغالاة، كما ناهضت جميع الأديان التعصب والتطرف بكل أنواعه وأشكاله، بل ذهب الطويل إلى أن الفكر الديني قد يتحول إلى عقبة كؤود تعوق كل تقدم وتعرقل كل نشاط وتسلب كل حرية للعقل والنظر والفكر، وتوصد أبواب الإبداع في التفكير فتجمد الحياة ويتوقف التقدم، ويتقوقع المجتمع، ويشيع البكاء على أمجاد الماضي وذلك إذا انتشر

[44] توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام ص31.

التأويل النفعي الدوجماطيقي أو التوظيف المتعسف للدين، فاستقراء تاريخ الأمم يقول: إن رجال اللاهوت المتعسف عند المسيحيين وغلاة المتعصبين من المسلمين، أولئك الذين أبوا إلا أن يحجروا على تفكير الناس ويقيموا أنفسهم أوصياء على عقولهم، قد أساءوا إلى الدين وتعاليمه السمحاء بمقدار ما أساءوا إلى الفلسفة والعلم معًا[45]. ومن هنا يصبح مثل هذا الفكر الذي ينسب للدين ظلمًا وعدوانًا مناقضًا لكل النواميس الأخلاقية عنده، وهو الذي اهتم اهتمامًا بينًا بإبراز التوافق بين الدين وبين مبادئ فلسفة الأخلاق.

ومن ثم كانت مساندته لكل فكر ديني يسعى إلى محاربة التقليد وفتح باب الاجتهاد، وتأكيد ضرورة إطلاق الحرية للعقل في إطار كتاب الله وسنة رسوله، والعمل على العناية بالمرأة وتثقيفها، والدعوة إلى التسامح الديني ومناهضة حركات الاستعمار مع الإفادة من علوم الغرب النافعة. ويواصل الطويل تفرقته بين الدين والفكر الديني وحرصه على وجود فكر ديني مستنير فيبين لنا جسامة الأضرار التي تلحق بالدين والعلم معًا إذا اعتبر الدين محكًا للنظريات العلمية، وكأنه يعيد إلى الأذهان تلك القضية الكلاسيكية القديمة في الفلسفة الإسلامية وهي قضية التوفيق بين الفلسفة والدين. ومن ثم يمكن القول إنه من اليسير تلمس مذهبه في ضرورة الجمع بين الوحي والعقل، ولذلك نجده يؤكد أنه في القرن السابع عشر اشتد الإيمان بشريعة العقل مع الإبقاء على قدسية الدين، وحرمة تعاليمه، مما مهد لميلاد فلسفة مبتكره وعلم جديد.

ويتعجب الطويل أن يرتكب هذا الاضطهاد وهذه الآثام الدامية باسم دين أخص مميزاته الدعوة إلى الحب والسلام والصفاء، مؤكدًا على أن الفشل سيكون هو المصير المحتوم لكل جهود المتزمتين من رجال الدين في اضطهاد الفكر المستنير، لأنهم لا يستطيعون أن يطفئوا للحق نورًا، فغلاة المتعصبين يملكون إبادة خصومهم، لكنهم لا يقوون على أن يطمسوا آية الحق، فالحق لا يموت بموت شهدائه، وإذا عدم الحق

---

[45] توفيق الطويل، قصة النزاع بين الدين والفلسفة، ص5.

الأنصار في عهد الاضطهادات المشئومة وجد له أنصارًا في عهود تالية، وقد مضى ركب العلم وتخلف المتعصبون.

لينتهي الطويل من ذلك إلى نتيجة محددة فحواها أنه لا تعارض بين إيمان الفلسفة بالعقل، وبين القول بالعلاقة التي ربطت بين التفكير الفلسفي والتفكير الديني، فالفلسفة تحتل مكانها من الدراسات الإنسانية التي يهتم بها رجال الدين، وكثيرون من الفلاسفة المحدثين والمعاصرين بدءوا حياتهم بدراسات دينية، وكثير من الفلاسفة كانوا رجال دين، ومن الفلاسفة من كان قلبه عامرًا بالإيمان الديني، وكثيرًا ما تحولت معتقدات دينية إلى مذاهب فلسفية، والعكس صحيح بشهادة تاريخ الفلسفة. كما أن الواقع الديني قد أدى في كثير من الحالات إلى بحث فلسفي فيما يتضمن الدين من معتقدات ومبادئ، لأن العقل بطبيعته نزّاع إلى التفكير في المشكلات الدينية (وغيرها)، والبحث عن حلول لها، ومن هنا جاء البحث الفلسفي في طبيعة الله ووجوده ووحدانيته وصفاته وعلاقته بمخلوقاته مع ما يقتضيه ذلك من البحث في حقيقة الكون، وفيما إذا كان قديمًا أو حديثًا، موجودًا بذاته أو بغيره، وعن مكان الإنسان من هذا الكون ومدى حريته أو جبريته، ومبلغ مسئوليته عن أفعاله، وطبيعة القيم التي ينبغي أن يدين بالولاء لها، إلى جانب البحث في حقيقة الوحي الإلهي ووجه الحاجة إلى النبوات، ونحو ذلك من موضوعات شغلت الكثيرين من الفلاسفة شرقًا وغربًا[46]. فالدين إذن لا يعارض الفلسفة أو العلم نظرًا للوحدة الأولى بين الوحي والعقل والطبيعة[47]. ولكنه يبدو معارضًا لهما عند أصحاب الفكر الديني المتعصب والمتزمت الذي ينأى عن الاعتدال ويدنو من التطرف والمغالاة.

---

[46] توفيق الطويل: بين لغة القرآن ولغة الفلسفة، بحث منشور بكتاب "قضايا من رحاب الفلسفة والعلم"، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت، ص175.

[47] حسن حنفي: من المثالية المعتدلة إلى الواقعية الجذرية، مقالة بالكتاب التذكاري عن توفيق الطويل، كلية الآداب. جامعة القاهرة، 1995، ص83.

هكذا يبين لنا الطويل تلك التفرقة الحاسمة والمهمة بين الدين والفكر الديني، تلك التفرقة التي لابد أن تلتفت إليها الأنظار في كل زمان ومكان، وإن كنا الآن في أمس الحاجة إلى الاهتمام بها وجعلها من قضايانا المحورية، نظرًا لخطورتها الفائقة في مجتمعاتنا الشرقية المتدينة بطبعها، حتى لا يقف الدين يومًا حجر عثرة في وجه التقدم الإنساني في شتى صوره ومجالاته نتيجة لفهم خاطئ للدين، فتحرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، وتصبح الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها. وحتى يبقى أيضًا للإيمان جلاله وعظمته في نفوس الناس مع تلافي ما يحتمل أن ينجم عنه من سوء، نتيجة لعدم الفهم أو نتيجة للتعصب والتزمت عند من صدئت قلوبهم وأظلم الجهل عقولهم.

وبذلك ينتهي الطويل إلى ضرورة التفرقة بين الدين في ذاته وبين الفكر الديني، والقول بضرورة التلازم بين الدين والعلم والأخلاق، ولا يكون ذلك -من وجهة نظره- إلا في وجود فكر ديني مستنير، ينأى عن التعصب والتطرف والمغالاة، وبذلك يصدق القول بأن الفكر الديني عند الطويل دعوة صادقة لنبذ كل تطرف وإرهاب وقمع وإذلال واضطهاد باسم الدين، فالدين في حقيقته وطبيعته الحقيقية ينبذ كل عنف، حتى لو كان الدين ذاته، ومن هنا يفرق توفيق الطويل بين الدين ذاته بما يتسم من نقاء وصفاء وتسامح، وبين التأويل أو التوظيف المتعسف للدين.

خاتمة

وهكذا يؤكد الطويل على أهمية الدين للأفراد والمجتمعات على السواء، وأن حاجة الإنسان إلى الدين ليست حاجة ثانوية ولا هامشية بل حاجة أساسية أصلية تتصل بجوهر الحياة وسر الوجود. كما أكد على ضرورة التوافق والتكامل بين الدين والقيم الإنسانية والأخلاقية، فكل القيم الحقة- حسب المثالية المعدلة- سواء كانت دينية أو إنسانية أو أخلاقية تؤكد على ضرورة التكامل بين البعد الروحي والبعد المادي فتصبح بمثابة استجابة أصيلة لتفهمه للطبيعة البشرية، ليصبح توفيق الطويل في مثاليته المعدلة ومع اتفاقه مع القائلين بحيوانية وتوحش الموجود البشري وغلبة

الناحية المادية عليه، يرى من ناحية أخرى أنه متى استجاب لتعاليم الدين،لإملاءات العقل، لإيحاءات الضمير، ودان بمثل عليا أجرى بمقتضاها سلوكه كان بهذا إنسانا سيطر على الجانب الحيواني في طبيعته واستحق التقدير والاحترام؛ لأنه الكائن الوحيد الذي يتعالى على واقعه ويتطلع إلى ما ينبغي أن يكون، بالإضافة إلى أنه الكائن الوحيد الذي يستطيع أن يبتكر وينشئ علوما وآدابا وفلسفات وفنونا،وأن يخترع حضارات ويبتكر مخترعات ليس في وسع أحد سواه أن يقوم باختراعها، بهذا وحده يمكن وصفه بأنه إنسان.

كما أكد هذا البحث على تأكيد التفرقة بين الدين في ذاته، والفكر الديني المتعلق بهذا الدين، فالدين في جوهره دعوة إلى الحب والتسامح والأخوة والعدالة والمساواة، حيث لا فرق بين أبيض أو أسود، غني أو فقير، عربي أو أعجمي إلا بالتقوى. والفهم الصحيح للدين يتسم بالصفاء والنقاء والتسامح، وعندئذ يكون الفكر الديني صحيحًا وايجابيًا، ويكون كذلك إذا كان دعوة صادقة لنبذ كل تطرف وإرهاب واضطهاد باسم الدين. بل ذهب الطويل إلى أن الفكر الديني قد يتحول إلى عقبة كؤود تعوق كل تقدم وتعرقل كل نشاط وتسلب كل حرية للعقل والنظر والفكر، وتوصد أبواب الإبداع في التفكير فتجمد الحياة ويتوقف التقدم، ويتقوقع المجتمع، وخاصة إذا انتشر التأويل النفعي الدوجماطيقي أو التوظيف المتعسف للدين. ولذلك اهتم اهتمامًا بينًا بإبراز التوافق بين مبادئ الدين و المبادئ الإنسانية والأخلاقية، والدعوة إلى إعلاء قيم الحرية والعدل والتسامح والمساواة والبعد عن التعصب والتطرف والتزمت والمغالاة. حيث بدت في النهاية ملامح رؤية الطويل واتجاهه الفكري الوسطي المعتدل بين المادي المحض والروحي الخالص في ذلك الاتجاه المنفرد الذي تبناه وتوصل إليه وأطلق عليه اسم "المثالية المعدلة" وهو اتجاهه الفلسفي الذي عُرف به في تاريخ الفكر العربي المعاصر.

قائمة المصادر والمراجع

[1] الشهرستاني: الملل والنحل، تحقيق عبد العزيز الوكيل، مكتبة الرياض الحديثة، السعودية، د، ت.
[2]الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ملحق بكتاب مشكلات فلسفية، طبعة وزارة التربية والتعليم، مصر، 1954.
[3] توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الديني بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، القاهرة، 1947.
[4] توفيق الطويل: بين لغة القرآن ولغة الفلسفة، بحث منشور بكتاب "قضايا من رحاب الفلسفة والعلم"، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
[5] توفيق الطويل: دور الدين والأخلاق في بناء الثقافة في مصر المعاصرة، بحث منشور بكتاب قضايا من رحاب الفلسفة والعلم، دار النهضة العربية، القاهرة، د.ت.
[6] توفيق الطويل : قصة النزاع بين الدين والفلسفة، لجنة الجامعيين لنشر العلم، السلسلة الفلسفية والاجتماعية(4)، القاهرة د. ت .
[7] حسن حنفي: من المثالية المعتدلة إلى الواقعية الجذرية، مقالة بالكتاب التذكاري عن توفيق الطويل، كلية الآداب. جامعة القاهرة، 1995.
[8] عبدالمنعم الحفني: المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، القاهرة،مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، 2000، ص 359، (مادة دين).
[9] ماريا لويز برنيري : المدن الفاضلة عبر التاريخ، ترجمة عطيات أبو السعود، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، (225)، 1997.
[10] مراد وهبة: المعجم الفلسفي،القاهرة، دار قباء، 1998 .(مادة دين)
[11] محمد عثمان الخشت: تطور الأديان (قصة البحث عن الإله)، الطبعة الأولى، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 2010.